كتاب مصطفى كامل

للأستاذ عباس محمود العقاد

الأستاذ الكبير عبد الرحمن الرافعي بك جدير أن يسمى بحق مؤرخ النهضة القومية الحديثة ، لأنه أرخها فى مرحلتها التى بدأت بالحملة الفرنسية ، وأرخها فى مرحلتها التالية التى بدأت بقيام محمد على الكبير على الأريكة المصرية ، وصحبها فيما أعقب ذلك من المراحل إلى عهد الثورة العرابية فالاحتلال البريطانى فالحركة الوطنية فى عهد هذا الاحتلال

وها هو ذا قد تأدى فى تاريخه لها إلى ختام القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، أى إلى الفترة التى ظهر فيها زعيم الوطنية فى أبناء ذلك الجيل مصطفى كامل باشا رحمه الله

ونهجُ الأستاذ الكبير فى كتابه عن مصطفى كامل شبيه بنهجه فى الكتب المتقدمة من حيث الطريقة والوجهة ، يتتبع الوقائع ويستقصى ما احتاج إليه من الأسانيد وينصف فى الحكم على الرجال والحوادث مع ميل يسير إلى تخفيف التبعات أو تجميل المحاسن فى بعض الجوانب ، وسهولة فى التعليل والتعليق لا تثقل على ذهن القارئ ولا تكتفى مع ذلك بالظواهر دون ما يلازمها من الأسباب والعواقب

إلا أنه فى كتابه عن مصطفى كامل قد اقترب من ميدان الحياة الحاضرة أو من معترك السياسة الذى يعيش فيه ، فكان لذلك أثره فى الميزان دون قصد فى بعض الأحيان ، وعلى قصد ظاهر فى بعض الأحيان

ولتوضيح ما نقول نرجع إلى الحركة الوطنية ومذهبيها المختلفين بعد احتلال الإنجليز لهذه البلاد

فقد كانت الدعوة الوطنية كما قلنا فى كتابنا عن سعد زغلول « شِعَباً مختلفات فى المقصد والنتيجة المأمولة، فمنها ما كان يتجه إلى الدولة العثمانية ، ومنها ما كان يتجه إلى فرنسا لأنها أكبر الدول التى كانت تناوئ انجلترا فى مطامعها الشرقية ، ولم يشترك مع هؤلاء ولا هؤلاء حصفاء الثورة العرابية الذين شهدوا بأعينهم تذبذب السياسة الفرنسية والسياسة العثمانية قبل الاحتلال . فقد رأى رجال هذا الفريق ما هو حسبهم وزيادة فى هذه الآمال الكاذبة وهذه الجهود العقيمة ، فاستقاموا على الطريق الوحيد المفيد المعهد لهم وهو طريق النهضة المصرية الصميمة واستقلال المصريين أنفسهم بطلب الاستقلال، وتزويد الأمة بمدة العلم واليقظة والثابرة، لأنه ما من وسيلة إلى الاستقلال فى رأيهم أنجع من وسيلة فهمه والاستعداد له والإصرار على طلبه ، ومن هذا الفريق كان أناس من فطاحل المصريين أمثال محمد عبده وسعد زغلول »

* * *

هذان هما المذهبان اللذان شاعا من مذاهب الحركة الوطنية بعد الاحتلال : مذهب مصر للمصريين ، ومذهب الاعتصام بالسيادة العثمانية ، إما لأنها دولة الخلافة ، أو لأن السيادة العثمانية « حجة شرعية » لمحاربة الغاصب وإظهار مركزه « غير المشروع »

ولا يخفى أن مصطفى كامل رحمه الله كان من أنصار السيادة العثمانية ، وكان يذكر الاستقلال ولا يذكر الاستقلال التام ، وكان يقيم المحافل كل عام فى عيد جلوس « المتبوع الأعظم » عبد الحميد سلطان آل عثمان ليؤكد ولاء المصريين للسيادة العثمانية . وقد أنشأ الحزب الوطنى فكان المبدأ الأول من مبادئه « استقلال مصر كما قررته معاهدة لندرة سنة ١٨٤٠ ، ذلك الاستقلال الذى يضمن عرش مصر لعائلة محمد على مع الاستقلال الداخلى عن تركيا »

وكان المبدأ العاشر من مبادئه « تقوية العلائق بين مصر والدولة العلية »

ولبث أشياع مصطفى كامل على هذا الرأى حتى كتب اللواء يعيب على الأستاذ الكبير « أحمد لطفى السيد بك » أنه يطالب بالاستقلال التام ويخرج بذلك على أحكام القانون وعلى سنة الولاء للسيادة العثمانية ، فاضطر الأستاذ يومئذ إلى التفرقة بين الاستقلال التام والاستقلال الكامل توفيقاً بين ما يدعو إليه وبين الصيغة الشرعية

ثم لبث أشياع مصطفى كامل على هذا الرأى إلى ما بعد الحرب العظمى وبعد الثورة الوطنية التى أعقبتها ، فحولوا الأمر إلى أصحاب السيادة فى الآستانة ثم فى أنقرة ، كأنهم هم الأصلاء وليس للمصريين أن يبرموا أمراً فى هذه السيادة إلا بعد إبرام الأصلاء رأيهم فى موضع الخلاف

وقد تعاقبت الحوادث وتمخضت الآراء فظهر بعد حين موقع الصواب من المذهبين ، وضعفت حجة السيادة العثمانية شيئاً فشيئاً حتى أصبح الجيل الحاضر يعجب كل العجب كيف كان هذا الرأى فى يوم من الأيام موضع خلاف ! !

وقد كان الإنصاف التاريخى يقضى ببيان هذه الحقيقة فى تاريخ مصطفى كامل ولا يمنع المؤرخ أن يفصل أعذار المعتصمين بالسيادة العثمانية فى ذلك الحين ، بل يوجب عليه أن يذكر هذه الأعذار وأن يذكر معها صواب المخالفين ولا سيما حين يشعر أنه صواب

ولكننا بحثنا فى كتاب مصطفى كامل فلم نر فيه إشارة إلى هذا أو ذاك ، وكأنما غلبت النزعة الحزبية على النصفة التاريخية فوجدنا أن الأستاذ الكبير قد أغفل الموضوع كل الإغفال ، فلم يذكر محافل المتبوع الأعظم ولم يذكر حملة اللواء على طلاب الدستور والحرية فى البلاد العثمانية ، وكتب أكثر من عشر صفحات عن تأسيس الحزب الوطنى مفصلا أسماء أعضائه وأقوال الصحف فيه دون أن ينشر مبادئه أو يأتى بالمهم منها وهى أهم ما يثبته المؤرخ فى سيرة زعيم حزب من الأحزاب

ولو أنه فعل هذا لأقر الحقائق فى نصابها وأتاح للقارئ أن يحيط بمعانى الحركة الوطنية من جميع نواحيها ، وأن يستخرج العبرة المقصودة بالتاريخ من صواب أو خطأ لكل فريق ، وما من فريق واحد معه كل الخطأ أو كل الصواب .

وبينما الأستاذ الكبير ينسى هذه الحقائق التى لا يبطلها النسيان إذا به يأخذ بالظنون التى لا سند لها ولا معول عليها فيما يكتبه عن سعد زغلول فيقول عن علاقة سعد بالجامعة المصرية « وتبين أن انسحابه من رياسة اللجنة كان تحقيقاً لرغبة الاحتلال لكى يحبط المشروع ، وقد أصابه الفتور والركود فعلاً بعد انسحابه من اللجنة ، وبخاصة لأن الحكومة خلقت فى ذلك الحين بإيعاز من الاحتلال أيضاً حركة إنشاء الكتاتيب واستحثت الأعيان فى مختلف الجهات على التبرع لها معارضة بذلك مشروع الجامعة »

ثم أشار الأستاذ الكبير إلى مسألة التعليم باللغة العربية فقال « وقد كانت خطبته — أى خطبة سعد — دفاعاً عن سياسة الاحتلال فى التعليم ، لأن الاحتلال هو الذى أحل اللغة الانجليزية محل اللغة العربية فى التدريس بالمدارس الأميرية ... »

* * *

تبين أن انسحاب سعد زغلول من رياسة الجامعة كان تحقيقاً لرغبة الاحتلال ... يا عجباً ! كيف تبين ذلك ؟ ومن أين جاء ذلك البيان ؟

أما الحقيقة فهى أن الحكومة تبرعت للجامعة بالمال واعترفت بشهاداتها كما تعترف بشهادات المدارس الأميرية . وسألنا سعداً فى ذلك فقال فى بيان نشرناه فى كتابنا عنه : « ... كل هذا والذين يريدون إخراج الجامعة من قبضة الحكومة قد يجهلون أنها دفعت مرة واحدة خمسة أضعاف ما دفعه المتبرعون فى أنحاء القطر المصرى بأجمعه ، وليس هذا كله كل ما أمدت به الحكومة هذه الجامعة فإن اعتبارها لها مدرسة منتظمة وقبول شهادتها بين بقية الشهادات المدرسية ينشط الناس إلى الإقبال عليها إقبالاً لا تظفر بمثله إذا كان الغرض منها مجرد تحصيل العلم وتوسيع العقل ، وربما لا تنسى أن بعض هؤلاء كان يطلب من الحكومة إعانة المشروع مادياً ، فرفضهم الآن إشرافها عليه بعد أن أدت الحكومة ما طلبوه منها يعد من الغرابة بمكان »

هكذا كان موقف سعد من الجامعة وهو وزير ، وإنه لأصوب ألف مرة من موقف الداعين يومذاك إلى إحباطها وتشكيك الناس فى مصيرها . أما إنشاء « الكتاتيب » واعتباره حرباً للجامعات والمدارس العليا فقد عشنا بحمد الله حتى رأينا الدستور المصرى يفرض التعليم الإلزامى فرضاً ويجعله واجباً من الواجبات الوطنية ، وعشنا بحمد الله حتى علمنا أن سعداً قد سبق النهضة القومية سنوات إلى ذلك العمل المجيد الذى كان محسوباً يومذاك من الجنايات

ومن السهل على الإنسان أن ينقد سعداً حين يعارض الهجوم على تقرير التدريس باللغة العربية فى جميع المدارس المصرية قبل إعداد الكتب وإعداد المدرسين والنظر فى عواقب هذا التبديل ؛ ولكن من السهل أيضاً أن يعلم الإنسان أن المستطاع هو المستطاع وأن سعداً قد عمل فى سبيل اللغة العربية والتمهيد لتدريسها جهد ما يعمله وزير فى تلك الأيام ، وأن مدرسة مصطفى كامل نفسها لم تكن تستغنى بالمدرسين المصريين عن المدرسين الانجليز ، اعتماداً